

الدرس السادس

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وصلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

القاعدة التاسعة: في طريقة القرآن في أمر المؤمنين وخطابهم بالأحكام الشرعية ، قد أمر الله تعالى بالدعاء إلى سبيله بالتي هي أحسن: أي بأقرب طريق موصل للمقصود، محصل للمطلوب، ولا شك أن الطرق التي سلكها الله في خطاب عباده المؤمنين بالأحكام الشرعية هي أحسنها وأقربها.

فأكثر ما يدعوهم إلى الخير وينهاهم عن الشر بالوصف الذي من عليهم به وهو الإيمان، فيقول: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا واتركوا كذا لأن في ذلك دعوة لهم من وجهين:

أحدهما: من جهة الحث على القيام بلوازم الإيمان، وشروطه ومكملاته، فكأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا قوموا بما يقتضيه إيمانكم من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، والتخلق بكل خلق حميد والتجنب لكل خلق رذيل.

فإن الإيمان الحقيقي هكذا يقتضي، ولهذا أجمع السلف أن الإيمان يزيد وينقص، وأن جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة من الإيمان ولوازمه، كما دلت على هذا الأصل الأدلة الكثيرة، من الكتاب والسنة - وهذا أحدها - حيث يصدر الله أمر المؤمنين بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} أو يعلق فعل ذلك على الإيمان وأنه لا يتم الإيمان إلا بذلك المذكور.

والوجه الثاني: أن يدعوهم بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} افعلوا كذا، أو اتركوا كذا، أو يعلق ذلك بالإيمان، يدعوهم بمنته عليهم بهذه المنة، التي هي أجل المنن، أي: يا من من الله عليهم.

فالوجه الأول: دعوة لهم أن يتمموا إيمانهم، ويكملوه بالشرائع الظاهرة والباطن.

والوجه الثاني: دعوة لهم إلى شكر نعمة الإيمان، ببيان تفصيل هذا الشكر، وهو الانقياد التام لأمره ونهيه).

فهذه **القاعدة التاسعة:** في طريقة القرآن في أمر المؤمنين وخطابهم بالأحكام الشرعية، نلاحظ حسن ترتيب الشيخ

- رحمه الله تعالى - لهذه القواعد؛ لأنه ذكر أولاً **ثلاث قواعد تتعلق بالإيمان وأصول الدين:**

- قاعدة في التوحيد.

- وقاعدة في النبوة.

- وقاعدة في المعاد.

وهذه أصول اتفقت عليها الشرائع، ودعا إليها جميع النبيين، ولا يُقبل أي عمل إلا إذا أُقيم عليها، ومر معنا قول

الله - سبحانه وتعالى - : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

وهذه الأصول تسمى عند أهل العلم: الفقه الأكبر، أي: أكبر أمر في جانب الفقه ينبغي أن يُعلم في دين الله - تبارك

وتعالى - ، والفروع وهي التي بدأ يتحدث عنها في هذه القاعدة تسمى: الفقه الأصغر، وكل منهما داخل تحت

قول النبي - عليه الصلاة والسلام - : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» أي: يفقه فيه عقيدة وشريعة.

ولهذا لما جاء رجل إلى النبي - عليه الصلاة والسلام - وقال: «قل لي قولاً في الإسلام لا أسأل عنه أحداً غيرك،

قال: قل آمنت بالله ثم استقم».

آمنت بالله: هذه العقيدة.

واستقم: هذه هي الشريعة.

الدِّين عقيدة وشريعة، والشريعة التي هي: العمل وفعل الأوامر وترك النواهي، لا تُقبل إلا إذا كانت قائمة على العقيدة الصحيحة، فالعقيدة للأعمال كالأساس للبناء وكالأصول للأشجار، ولهذا قال الله - سبحانه وتعالى - :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [ابراهيم: ٢٤]، كما أنَّ

الشجرة تتكون من أصل وفرع، فإنَّ الإيمان أيضا هو شجرة تتكون من أصل وفرع.

وقد أَلَفَ الشيخ عبد الرحمن بن سعدي - رحمه الله تعالى - رسالة يُنصح كل مسلم بقراءتها سمّاها "التوضيح

والبيان لشجرة الإيمان" تحدّث فيها عن هذه الشجرة المباركة بحديث واف جامع.

الذي مرّ في القواعد الثلاث هو الأصل، التوحيد أصل، والإيمان بالنبوة أصل، والإيمان بالمعاد أصل.

والذي سيتحدث عنه - رحمه الله تعالى - في هذه القاعدة هو: الفروع والأحكام والشرائع والأوامر والنواهي وطريقة القرآن في بيانها، وكل هذه لا تكون مقبولة إلا إذا أقيمت على أصول صحيحة ودعائم متينة مرّ تقريرها في القواعد الثلاث الماضية.

ويُستفاد من هذا الترتيب أهمية البدء بالإعتقاد علماً وتعليماً ودعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - ، وأن هذه هي طريقة الأنبياء في الدعوة، أوّل ما يبدؤون فيه بدعوة الأقسام تقرير هذه الأصول: التوحيد والمعاد والنبوات، ثم بعد ذلك تُذكر الأوامر والنواهي تفريعاً على تلك الأصول.

أمّا أن تقام الأوامر والنواهي على غير أصلٍ، وتبنى على غير أساس، فهذا ينهار بصاحبه ولا يستقيم له. إذن هذه القاعدة في بيان طريقة القرآن في أمر المؤمنين وخطابهم بالأحكام الشرعية، عرفنا طريقته في تعليم النَّاس الإعتقاد في القواعد الثلاث الماضية، وهنا طريقة القرآن في تعليم النَّاس الأحكام، كيف يعبدون الله؟ كيف يفعلون أوامره؟ كيف ينتهون عما نهى عنه؟ ما هي الطريقة التي عليها القرآن في تقرير هذا الأمر؟

وأيضاً بين يدي هذا الذي سيبيّنه الشيخ - رحمه الله تعالى - ينبغي أن نعلم أن طريقة القرآن هي الطريقة التي يجب على كل مسلم أن يسلكها، وهي النهج الذي ينبغي على كل مسلم أن ينهجه، فليس هناك أكمل ولا أمثل

ولا أعظم من الطريقة التي جاءت في كتاب رب العالمين ووحيه وذكره الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولهذا يجب أن نعلم أن في القرآن غنية وكفاية ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]. فالقرآن فيه كفاية، ومن لم يقنع بطريقة القرآن، ولم يسعه ما جاء في القرآن فلا وسع الله عليه؛ كما قال ذلك أئمة السلف وعلماء المسلمين، من لم يسعه ما في القرآن وما في سنة النبي الكريم - عليه الصلاة والسلام - من النهج القويم والسنن المستقيم والطريق الواضحة فهو آخذ بسبيل ضلاله، قد قال - عليه الصلاة والسلام - : «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا "كتاب الله وسنتي"».

فطريقة القرآن هي الطريقة التي ينبغي أن تسلك، وأن يستفاد منها في الدعوة إلى الله سواءً في دعوة غير المسلمين أو في دعوة المسلمين، ولهذا قال الله - عز وجل - : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وقال: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، والآيات في هذا المعنى كثيرة وقال - - - جلّ وعلا - - : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ولهذا من الخطأ البين أن يتصدر من يتصدر للدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - دون أن يكون في دعوته ذكرٌ لكلام الله - سبحانه وتعالى - ، واستشهاد بالقرآن الكريم، وإتيان بآيات الذكر الحكيم المباركات؛ لأنَّ القرآن كتابٌ مبارك، وكتاب هداية، وكتابٌ فيه شفاء للصدور.

كم من أناسٍ هداهم الله - سبحانه وتعالى - ببركة هذا الكتاب، سمعوا آية واحدة وتحولوا من ساعته إلى مؤمنٍ صحيح الإيمان، فالقرآن كتابٌ مبارك.

ولهذا ينبغي على كل من اشتغل بالدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - أن يجعل لدعوته ولما يذكره في دعوته يجعل لكلام الله - سبحانه وتعالى - النصيب الأوفر.

ومن الخطأ أن يتكلم شخصٌ إمّا في محاضرةٍ أو خطبة جمعةٍ أو غير ذلك ولا يستشهد بكلام الله ولا يأتي بآيات من القرآن الكريم. ولهذا ينبغي أن يعني بهذا الجانب:

- أن يعني بطريقة القرآن.

- وأن يعني أيضا بالاستشهاد بكلام الله - سبحانه وتعالى - وتلاوة الآيات.

وقد كان نبينا - عليه الصلاة والسلام - يتلو الآيات على المشركين، يدعوهم بها إلى الله - سبحانه وتعالى - ، وينذرهم ويخوفهم بما جاء في كتاب الله من الوعد والوعيد والترغيب والترهيب وغير ذلك.

قال رحمه الله وتعالى: (قد أمر الله تعالى بالدعاء إلى سبيله بالتي هي أحسن).

قوله: (بالتّي هي أحسن) هذه اللفظة جاءت في قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وهذا مقام دعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - ، وأيضا جاءت في تقرير جامع في الدعوة وغيرها في قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣].

فالله - سبحانه وتعالى - أمر عباده بذلك، أمرهم أن يكون قولهم ودعوتهم بالتي هي أحسن، ولا يرتاب مسلم أن أحسن الهدى وخيره وأعظمه كلام الله - سبحانه وتعالى - : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ولهذا جعل الشيخ رحمه الله وتعالى: أن هذه مقدمة بين يدي بيان طريقة القرآن؛ لأنه يقول إن الله عز وجل أمرنا أن ندعو بالتي هي أحسن، وهذا جاء مفصلا في القرآن الكريم، فمن أراد لنفسه الدعوة بالتي هي أحسن فليسلك طريقة القرآن، فلا أحسن من طريقة القرآن في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى .

قال: (أي بأقرب طريق موصل للمقصود محصل للمطلوب)، وهذا تلخيص لمعني قوله: (بالتّي هي أحسن) فأحسن طريقة هي التي تشتمل على هذين الأمرين:

-الأمر الأول: كونها موصلة إلى المقصود بأقرب طريق؛ لأنه لو كان يوصل للمقصود طريق قريب وطريق بعيد، فالتى هي أحسن القريية، لا يسلك الإنسان طريقة البعيدة وسبيلاً ملتوية وعنده طريقة قريبة.

وهذا يمثل له بعض الناس بمثال شائع فيمن يسلك طريقة البعيدة وعنده طريقة سهلة قريبة؛ يمثلون بذلك بمثال شائع بين الناس في زماننا، ووجدت أهل العلم قديماً ذكروه ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الرد على بعض المتكلفين الذين يسلكون في الدعوة طرقاً بعيدة وعرة، ويتركون الطرق السهلة، قال رحمه الله تعالى:

(مثلهم مثل رجل قيل له أين أذنك؟ فمد يده اليمني من فوق رأسه، وأمسك بها أذنه اليسرى)، هذا تطويل لا حاجة إليه.

فالدعوة بالتى هي أحسن أن يسلك فيها الداعي إلى الله عز وجل الطريقة الأقرب هذا جانب.

الجانب الآخر: أن تكون محصلة للمطلوب.

فهذان مطلوبان في الدعوة بالتى أحسن: بأن يسلك الطريق الأقرب، وأن يكون أيضاً محصلاً للمقصود، أما إن لم يكن محصلاً للمقصود لا فائدة فيه.

قال: (ولا شك أن الطرق التى سلكها الله في خطاب عباده المؤمنين بالأحكام الشرعية هي أحسنها وأقربها) وهذا تقعيد عظيم ونافع.

قال: (لا شك أن الطرق التى سلكها الله في خطاب عباده المؤمنين في الأحكام الشرعية هي أحسن الطرق وأقربها) ولهذا من أراد أن يدعو إلى الله - سبحانه وتعالى - بالتى هي أحسن فلتكن دعوته بالقرآن وبطريقة القرآن، ينهج نهج كتاب الله - سبحانه وتعالى - .

ثم شرع يفصل، قال: (فأكثر ما يدعوهم إلى الخير وينهاهم عن الشر بالوصف الذي من عليهم به وهو الإيمان).

وهذا أمر له معنى كبير جداً، تجد القرآن الكريم فيه آيات كثيرة يبدوها - جلّ وعلا - بقوله: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا))، ثم يأمر أو ينهى أو يجمع بين الأمر والنهي، وفي القرآن من الآيات المبدوءة بـ ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)) ما

يقرب من التسعين آية، ما يقرب من التسعين آية في كتاب الله عز وجل مبدوءة بقوله: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)) ثم يأتي بعد هذا النداء، إما أمرٌ أو نهْي، إما خير يؤمر به العبد، أو شر يُنهى عنه.

فإذن من طرائق القرآن أو طريقة القرآن في الدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - أن يخاطب أهل الإيمان بهذا الوصف ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)) يناديهم بهذا النداء.

قال: (فأكثر ما يدعوهم إلى الخير وينهاهم عن الشر بالوصف الذي من عليهم به وهو الإيمان. فيقول: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)) افعلوا كذا، واتركوا كذا، لأن في ذلك دعوة لهم من وجهين).

لك هنا أن تسأل: لماذا تُبدأ الأوامر والنواهي في القرآن كثير بهذا الخطاب: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا))؟؟

يقول الشيخ لوجهين:

(- الوجه الأول: من جهة الحث على القيام بلوازم الإيمان، وشروطه، ومكملاته، فكأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا قوموا بما يقتضيه إيمانكم)

فيبدأ بمناداتهم بوصف الإيمان (يا أيها الذين آمنوا)، ثم يطالبهم ويأمرهم - سبحانه وتعالى - بمقتضيات الإيمان؛ لأن الأوامر والنواهي هي من مقتضيات الإيمان ومكملاته، كما أنها من الإيمان، فهي من مقتضياته ومن مكملاته، ولهذا يبدأ - جلّ وعلا - بمخاطبتهم بوصف الإيمان، ثم يدعوهم إلى هذه الأوامر، وكأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا، كمّلوا إيمانكم بفعل كذا، قوموا بما يقتضيه إيمانكم بترك كذا.

فيبدأ بتذكيرهم بهذا الوصف العظيم واللقب الشريف وهو الإيمان.

قال: (بما يقتضيه إيمانكم، من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، والتخلق بكل خلق حميد، والتجنب لكل خلق رذيل؛ فإن الإيمان الحقيقي هكذا يقتضي) يعني يقتضي فعل الأوامر وترك النواهي.

(ولهذا أجمع السلف أن الإيمان يزيد وينقص، وأن جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة من الإيمان ولوازمه)

ولهذا كان من الحكمة أن يُنادى المؤمن بهذا اللقب: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا))، ثم يدعى لفعل الأوامر، وترك النواهي، الذي قيام العبد جزء من إيمانه ومكمل لإيمانه وهو أيضا من مقتضيات إيمانه.

قال: (كما دلت على هذا الأصل الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة).

قوله: (كما دلت على هذا الأصل) أي: أن الإيمان يزيد وينقص، ويقوى ويضعف، هذا دلت عليه أدلة كثيرة في الكتاب والسنة، مثل قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَكُنْمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقوله - سبحانه وتعالى - : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]،

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦]،

﴿وَيَخْرُجُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩]، الآيات في هذه المعنى كثيرة.

وأيضا جاءت النصوص مصرحة بنقص الإيمان وضعفه مثل قوله: «وذلك أضعف الإيمان»، وقوله: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين»، وقوله: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»، فهذا أصل من الأصول الثابتة في الكتاب والسنة، وهو مجمع عليه بين سلف الأمة: أن الإيمان يزيد وينقص ولزيادته أسباب، ولنقصانه أسباب.

وهذه الشرائع التي هي فعل الأوامر وترك النواهي كلها مكملات للإيمان، ومن يترك المأمور ينقص إيمانه، ومن يفعل المنهي والمحظور أيضا ينقص إيمانه، فالإيمان يزيد بفعل الطاعات، وينقص بفعل المعاصي، ولهذا قال عمير بن حبيب الخطمي رضي الله عنه: "الإيمان يزيد وينقص"، قيل: وما زيادته ونقصانه؟ قال: "إذا ذكرنا الله وسبحانه وحمدناه زاد، وإذا غفلنا ونسينا نقص".

فالإيمان يزيد بالذكر، بالدعاء، بالعبادة، بالصلاة، وأيضا يزيد بترك المحرمات، كما أن إيمانك يزيد بفعل الطاعات من صلاة وصيام وغير ذلك، فإنه كذلك يزيد بترك المحرمات، بُعد الإنسان عن المحرمات هذا من إيمانه، ويزداد إيمانه بتركه لهذه المحرمات، ولهذا قال - عليه الصلاة والسلام - : **«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»**، وقال: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»**، فدل هذا على أن فعل هذه المعاصي وارتكاب هذه الآثام ينقص الإيمان ويضعفه.

فمن الأصول المتقررة: (أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية)

ولما كان كذلك ناسب أن يُنادى أهل الإيمان عندما يؤمرون بالأوامر وينهون عن النواهي يُنادون مخاطبين بهذا الوصف: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾**.

قال: (كما دلت على هذا الأصل الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة، وهذا أحدها).

ما مراد الشيخ رحمه الله تعالى بقوله: (وهذا أحدها)؟

الآن يقول الشيخ أن القرآن والسنة دلا في مواضع كثيرة على أن الإيمان يزيد وينقص، وجاءت أدلة في القرآن والسنة على زيادة الإيمان ونقصانه جاءت متنوعة:

- منها آيات فيها التصريح بزيادة الإيمان.

- ومنها آيات فيها التصريح بتفاضل أهل الإيمان في الإيمان.

ومن أنواع الأدلة الدالة على أن الإيمان يزيد هذه الآيات التي فيها: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا، هذا دليل على أن الإيمان يزيد؛ لأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا، ثم يأمرهم - تبارك وتعالى - بأمور من خصال الإيمان إذا فعلوها ما الذي يحدث لإيمانهم؟ يزداد.

إذن الآيات -وهي تقرب من التسعين آية- المبدوءة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كلها دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، ما وجه دلالتها على ذلك؟

أنك إن فعلت هذا الذي أمرت به ونوديت لفعله زاد إيمانك، وإن تركته نقص.

فإذن هذه الآيات التي فيها خطاب المؤمنين بهذا الوصف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذه كلها دليل على أن الإيمان يزيد وينقص.

ومن هذه الآيات -التي عددها يقرب من التسعين- منها آيتان صريحتان في هذا الباب: إحداهما في النساء، والأخرى في الحديد.

يقول الله سبحانه في الآية الأولى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦]، وفي سورة الحديد قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ [الحديد: ٢٨] ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾

ماذا يكون هذا؟ عندما يطلب من المؤمن الإيمان، ينادى بوصف الإيمان، ويقال له: آمن،

هذا ماذا يعني؟ يعني أن الإيمان يزيد مثله -كما يقول أهل العلم- مثل رجل يمشي إلى جنبك، وتقول له: يا فلان امشي، عندما تأمر الشخص الذي شرع بالمشي، عندما تأمره بالمشي، هذا ما هو؟ أمر بالزيادة.

فالآيات التي فيها أمر الله - سبحانه وتعالى - المؤمنين بالإيمان، أو أمره لهم بالطاعات، ونهيه لهم عن المعاصي مبدوءة بوصف الإيمان، هذا دليل واضح على أن الإيمان يزيد وينقص ويقوى ويضعف، شأنه كما قال السلف الصالح: يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي.

قال: (وهذا أحدها) هذا معنى قوله: (وهذا أحدها)، أي: أحد الأدلة الدالة أو أحد أنواع الأدلة الدالة على زيادة الإيمان ونقصانه.

قال: (حيث يصدر الله أمر المؤمنين بقوله: يا أيها الذين آمنوا) هذا دليل على أن الإيمان يزيد وينقص.

(أو يعلق فعل ذلك على الإيمان، وأنه لا يتم الإيمان إلا بذلك المذكور).

مثل قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]،

ومثل أيضا قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤].

علق الإيمان على ماذا؟ علق تحقق الإيمان على هذه الأوصاف: الذكر، والصلاة، والزكاة، والتوكل إلخ، فدل ذلك على أن هذه من أوصاف الإيمان، وأن زيادة العبد منها زيادة في إيمانه.

وأیضا نظیرها قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، ثم ذكر - جلّ وعلا - أوصافهم التي هي أوصاف أهل الإيمان، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

هذا الوجه الأول.

(الوجه الثاني: أنه يدعوهم بقوله: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا، أو اتركوا كذا، أو يعلق ذلك بالإيمان، يدعوهم بمنته عليهم بهذه المنّة التي هي أجل المنن، أي: يا من من الله عليهم بالإيمان قوموا بشكر هذه النعمة بفعل كذا وترك كذا).

هذا وجه آخر لبدء؛ أو لتعليل بدء الآيات التي فيها الأوامر والنواهي في القرآن، أو كثير من الآيات التي فيها الأوامر والنواهي في القرآن بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

يقول الشيخ هذا من باب التذكير لهم بهذه النعمة نعمة الإيمان، وكأنه يقول: يا من؛ قوله: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا، أو يا أيها الذين آمنوا اتركوا كذا، أي: يا من أكرمكم الله ومن عليكم بنعمة الإيمان اعملوا بطاعة

الرحمن، وتجنبوا معصيته، تذكير لهم بهذه النعمة، والإيمان ولا ريب نعمة، وهي أكبر النعم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضَلَّ اللَّهُ نِعْمَةً﴾ [١]، وقال - جلَّ وعلا - : ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، ويقول - جلَّ وعلا - : ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١].

فالإيمان منة الله - سبحانه وتعالى - على من يشاء من عباده، ولهذا جاءت الآيات بتذكير بهذه النعمة - نعمة الإيمان - التي هي أعظم النعم، ومن خلال هذا التذكير يُدعون إلى فعل الأوامر وترك النواهي التي بفعلها وتركها زيادة إيمانهم.

ثم وضع ذلك الشيخ أو بينه بيانا مختصرا قال: (فالوجه الأول: دعوة لهم أن يتمموا إيمانهم، ويكملوه بالشرائع الظاهرة والباطنة).

والوجه الثاني: دعوة لهم إلى شكر نعمة الإيمان، ببيان تفصيل هذا الشكر، وهو الانقياد التام لأمره ونهيهِ.

وتارة يدعو المؤمنين إلى الخير، وينهاهم عن الشر بذكر آثار الخير وعواقبه الحميدة العاجلة والآجلة، وبذكر آثار الشر وعواقبه الوخيمة في الدنيا والآخرة).

ثم ذكر طريقة أخرى من طرق القرآن في الدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - قال: (وتارة يدعو المؤمنين إلى الخير، وينهاهم عن الشر بذكر آثار الخير وعواقبه الحميدة العاجلة والآجلة، وبذكر آثار الشر وعواقبه الوخيمة في الدنيا والآخرة).

وهذا يأتي كثيرا في القرآن الكريم، عند ذكر الأوامر يُذكر إما قبلها أو بعدها آثارها وفوائدها وثمارها على أهل الإيمان في الدنيا والآخرة:

- في الدنيا من الحياة الطيبة، والعيش الهنيء، وطمأنينة القلب، وزوال الهموم وإلى غير لك من الفوائد والثمار والآثار، وأيضا الدفاع - دفاع الله - عن أوليائه وحفظه - سبحانه وتعالى - لهم،
- وفي الآخرة من الثواب الجزيل، والنعيم المقيم، والسلامة من العقاب وسخط الله، هذا في جانب فعل الأوامر.

وفي جانب ترك النواهي:

يأتي في القرآن التحذير، تذكر النواهي ويذكر بعدها أو قبلها العواقب التي ينالها من فعل هذه الأمور التي نهى الله - سبحانه وتعالى - عباده عنها، فهذا يأتي في القرآن كثيرا.

ولهذا في باب الدعوة إلى الله أو الدعوة إلى الأوامر والنواهي ينبغي أن يضمن الداعي إلى الله - سبحانه وتعالى - فوائد الذي يأمر الناس به وثماره، وأيضا مضار الذي ينهاهم عنه وأخطاره على الناس في الدنيا والآخرة.

فهذه طريقة القرآن في الدعوة إلى الله قال - جلّ وعلا - : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَأَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] وهذه آية جامعة في الأمرين: ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، الدنيا الحياة الطيبة، والآخرة الثواب الجزيل، وهذا المعنى جاء مبسوطا في آيات كثيرا في كتاب الله عز وجل: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ [النبا: ٣١]، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر: ٥٤]، والآيات في هذا كثيرة.. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] هذا ثواب في الدنيا ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]، الآيات في هذا المعنى كثيرة، يذكر الأوامر والأعمال الصالحات ثم يذكر آثارها وثمارها.

والشيخ رحمه الله له فصل جميل في بسط هذه المسألة في كتابه: التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، وهذا الكتاب يتكون من فصول ثلاثة، الفصل الثالث في فوائد الإيمان وثمراته، وجمع فيه من الثمار والآثار والفوائد للإيمان في الدنيا والآخرة شيئا طيبا وقدرًا عظيمًا، جمعه من كتاب الله وسنة نبيه - صلوات الله وسلامه عليه -.

(وتارة يدعوهم إلى ذلك بذكر نعمه المتنوعة وآلائه الجزيلة، وأن النعم تقتضي بهم القيام بشكرها، وشكرها هو القيام بحقوق الإيمان).

هذه طريقة أيضًا من طرق القرآن في الدعوة لفعل الأوامر، وترك النواهي، يُذكر الله - سبحانه وتعالى - عباده بالنعم، وهذا يأتي في القرآن مبسوطًا بسيطًا واسعًا، يُذكر بالنعم، ثم يطالبهم - سبحانه وتعالى - بشكره على هذه النعم، يُعدد النعم والآلاء والأفضال، ثم يأتي في تمام ذلك المطالبة بشكر الله - سبحانه وتعالى - على هذه النعم.

خذ مثالاً على ذلك قول الله - سبحانه وتعالى - في سورة إبراهيم: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤]، هذا التذكير لماذا؟

وأيضًا يقول في سورة النحل وهي سورة النعم، معروفة بهذا الاسم عند أهل العلم: ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وفيها عدد - سبحانه وتعالى - في آيات كثيرة نعمه - سبحانه وتعالى - : نعمه على العباد في أبدانهم، وأموالهم، والجبال والأنهار والفلك، والملابس والمسكن والخيول والبغال إلى غير ذلك، نعم يعددها - سبحانه وتعالى - في سورة النعم - سورة النحل - .

ثم في تمام عدّه لهذه النعم يقول - سبحانه وتعالى - : ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ لماذا؟ ﴿لَعَلَّكُمْ تُسَلِّمُونَ﴾ [النحل: ٨١]، ثم يقول بعد ذلك: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣]

فهذه النعم يعددها - - جلّ وعلا - - ويذكرها لعباده ليدعوهم إلى شكره - سبحانه وتعالى - على هذه النعم.

شكر الله - سبحانه وتعالى - له أركان:

- الاعتراف القلبي بالنعمة.

- ومحبة المنعم.

- والثناء عليه.

- واستعمالها في طاعته.

- وألا يستعملها في معصيته.

هذا كله من شكر الله - سبحانه وتعالى - على نعمه؛ ولهذا قال: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، فليس الشكر أن يقول من أنعم الله عليه: الحمد لله، هذا شكر، لكن ليس هذا كل الشكر، الشكر: بالقلب اعترافاً، وباللسان حمداً وثناءً، وبالجوارح عملاً بطاعة الله.

أما الذي يُنعم الله - سبحانه وتعالى - عليه بالنعم في صحته، وبدنه، وعافيته، وماله وإلى آخره ثم يستعمل هذه النعم فيما يُسخط الله، هل هذا شكر الله على نعمه؟! أبداً.

فشكر الله - سبحانه وتعالى - على النعم:

- بالقلب اعترافاً وإقراراً وإيماناً.

- وباللسان حمداً وشكراً وثناءً.

- وبالجوارح استعمالاً لهذه النعم في طاعة الله - سبحانه وتعالى - وما يقرب إليه.

ولهذا من طريقة القرآن في الدعوة إلى الأعمال الصالحة، والتحذير أيضاً من الأعمال السيئة من طريقة القرآن في ذلك أن يذكر العبد بالنعم وهذه طريقة نافعة، ولو يسلكها الدعاة إلى الله - سبحانه وتعالى - في وعظ الناس تنفعهم جداً وتفيدهم كثيراً.

أحد العلماء جاءه رجل وقال له: إن نفسي تطالبني أن أفعل الفاحشة - الزنا والعياذ بالله -، فقال له: إذا أردت أن تفعل هذه المعصية افعلها ولكن لا تستعمل في فعلك لهذه المعصية أي نعمة من نعم الله عليك، قال: ما أستطيع، كل الذي عندي نعم من الله.

انظر التذكير! يذكره بالنعم، يذكره بنعمة الله عليه حتى يترك النهي، هذه طريقة القرآن، يذكر - سبحانه وتعالى - بالنعم حتى نفعل الأوامر، ونترك النواهي، نذكر نعمة الله علينا في أبداننا، في أسماعنا، في أبصارنا، في أموالنا ... إلى آخره، حتى تلين القلوب لفعل الأمر، وترك النهي.

قال: افعل؛ لكن لا تستعمل في هذه المعصية شيئاً من نعم الله عليك، قال: ما أستطيع، كل الذي عندي نعم من الله، قال: لا بأس افعل هذه المعصية؛ ولكن اذهب في مكان لا يراك الله، مكان لا يطلع الله عليك، قال: ما يمكن، أينما أكون يراني، قال: كيف تعصي الله بنعمة الله وهو يطلع عليك؟ فكف الرجل.

إذن من الطرق النافعة في الدعوة التذكير بالنعم، ولهذا لما يقال للعاصي: أما تتقي الله! هذا السمع، هذا البصر، هذه القدم، هذه اليد، هذه الحواس، من الذي أعطاك إياها؟ ألا تستحي من الله؟ ألا تعلم أن الله يراك؟ ألا تعلم أن الله يطلع عليك؟ أما تذكر نعمة الله عليك بالصحة بالبدن؟ أما تخاف أن تسلب هذه النعمة؟

هذه طريقة مسلوكة في كتاب الله - سبحانه وتعالى - ، وهي مفيدة في باب الدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - ، وباب الترغيب والترهيب، وكثيراً ما ترى في القرآن يعدد الله - سبحانه وتعالى - على عباده نعمه العظام، وآلاءه الجسام، وعطاياه الكبار، وأفضاله ومننه، ثم يدعو العباد إلى فعل المأمور، وترك المحذور، بعد أن لينت القلوب بالتذكير بالنعم التي تفضل بها - سبحانه وتعالى - وأنعم.

(وتارة يدعوهم إلى ذلك بالترغيب والترهيب، وبذكر ما أعد الله للمؤمنين الطائعين من الثواب، وما لغيرهم من العقاب).

هذه أيضاً طريقة في القرآن الكريم الترغيب والترهيب، ودائماً عندما تقرأ القرآن تجد أن الترغيب والترهيب يأتيان معاً، يأتي ذكر الجنة، ويأتي ذكر النار مباشرة، يأتي الوعد، ويأتي الوعيد، يأتي الثواب، ويأتي العقاب، يأتيان معاً: ترغيب وترهيب، ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠].

هذه طريقة في القرآن، ولهذا يقول العلماء: من أخذ جانب الترغيب، وأهمل الترهيب، أمن من مكر الله، ومن أخذ جانب الترهيب، وأهمل جانب الترغيب، قنط من رحمة الله، والمطلوب من المؤمن أن يكون متوازناً في هذا الباب بين الرجاء والخوف، بين الرغبة والرغبة، لا يغلب جانباً على جانب، ومتى تعتدل عندك الرغبة، والرغبة، والرجاء، والخوف إلا مع القرآن يرغب ويرهب، يبشر وينذر، يذكر الجنة، ويذكر النار.

هذه طريقة في القرآن، ولهذا ينبغي أن تسلك هذه الطريقة في الدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - .

ولهذا ترى الخطأ الظاهر السائد في عدد من العوام، تجده يغشى بعض المعاصي أو بعض الذنوب، وإذا نهي عنها قال: ربك غفور رحيم، نسي الجانب الآخر، ولهذا لم يكن متوازناً في سيره، والمفترض أن يأتي بالجانبين معا: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠] فيه مغفرة، وفي عذاب، وعليك أن تذكر الأمرين معا:

-المغفرة لترجو.

- والعذاب لتخاف.

أما أن تذكر المغفرة وترجو بدون خوف هذا يؤمن الإنسان من مكر الله - سبحانه وتعالى - ،

وإذا غلب جانب الخوف، وأهمل جانب الرجاء قنط،

بعض الناس يقرأ في الوعيد، ويقرأ في الوعيد، ولا يقرأ في الرجاء فيصاب بقنوط من رحمة الله - سبحانه وتعالى - ، وكل من الجانبين خطأ.

ولهذا ينبغي أن يمضي الإنسان في هذا الباب معتدلاً، ولهذا قال بعض العلماء الرجاء والخوف مثل الجناحين للطائر، ومن المعلوم أن الطائر لا يطير باتزان إلا بسلامة الجناحين، وبإمضاء العمل بهما معا، فيمضي في طيرانه على أحسن حال، أما إذا اختل أحد الجناحين لا يطير أو يطير طيراناً ملتوياً لا يصل من خلاله إلى جادة، ولا يهتدي إلى طريق.

فإذن طريقة القرآن هي هذه: الترغيب والترهيب، يرغب ويرهب.

إذن نستفيد من هذه الطريقة في الدعوة إلى الله:

- من أراد أن يدعو إلى الله عليه أن يجمع بين الأمرين المجموع بينهما في القرآن ألا وهما: الترغيب والترهيب في الدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - .

وبعض العلماء جمعوا في ذلك كتباً ومن أوسعها "الترغيب والترهيب" للمنزري، جمع فيه الأحاديث النبوية في هذا الباب -باب الترغيب والترهيب-.

فهذه طريقة القرآن وطريقة النبي - عليه الصلاة والسلام - ، ترغيب وترهيب، لما كتب - عليه الصلاة والسلام - كتابه لهرقل ملك الروم ماذا قال له؟ قال: **«أسلم تسلم وإلا فإن عليك إثم الأريسيين»**:

«أسلم تسلم» هذا ترغيب،

«وإلا فإن عليك إثم الأريسيين» هذا ترهيب، يعني إن لم تسلم انتبه يوم القيامة تحمل إثمك وإثم هؤلاء الذين يتبعون ساداتهم وكبراءهم، **«فإن عليك إثم الأريسيين»** يعني إثم هؤلاء الذين هم أتباعك،

فرغبه بقوله: **«تسلم»** ورهبه بقوله: **«فإن عليك إثم الأريسيين»** فيجمع بين الترغيب والترهيب في الدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - هذه طريقة واضحة، ظاهرة بينة في كتاب الله عز وجل.

(وتارة يدعوهم إلى ذلك بذكر ما له من الأسماء الحسنى، وما له من الحق العظيم على عباده، وأن حقه عليهم أن يقوموا بعبوديته ظاهراً وباطناً، ويتعبدوا له وحده، ويدعوه بأسمائه الحسنى وصفاته المقدسة.

فالعبادات كلها شكر لله وتعظيم وتكبير، وإجلال وإكرام، وتودد إليه، وتقرب منه).

وهذه الطريقة أيضا من طرق القرآن، وهي أعظم الطرق وأجلها في الدعوة إلى الأوامر والنواهي، ألا وهي: تذكير العباد بالرب العظيم - سبحانه وتعالى - ، وبأسمائه الحسنی وصفاته - جَلَّ وعلا - العليا، وما له من الحقوق على عباده - جَلَّ وعلا - ، وبيان عظمته وجلاله وكماله.

فهذه طريقة في القرآن الكريم في الدعوة إلى الأوامر والنواهي، بل إنك لا تكاد ترى آية في القرآن الكريم إلا وهي مختومة بأسماء أو صفات لله - سبحانه وتعالى - ، وسيأتي عند المصنف هنا قاعدة نفيسة جدا حول الآيات المختومة بالأسماء الحسنی، وقرر هناك قاعدة: أن كل آية ختمت باسم من أسماء الله - تبارك وتعالى - أو أكثر فللاسم الذي ختمت به الآية تعلق بالحكم الذي ذكر فيها، وهذه قاعدة ستأتي لاحقا عند المصنف - رحمه الله تعالى - .

فإذن هذه طريقة في القرآن يذكر الله - سبحانه وتعالى - ويذكر عباده بأسمائه وصفاته، فإذا ذكروا الله وذكروا أسمائه وذكروا صفاته وذكروا عظمته وجلاله، تحركت قلوبهم بتحقيق توحيده والقيام بعبوديته، خذ مثلا آية الكرسي، وخذ مثلا خواتيم الحشر: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۗ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۗ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۗ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

فالشاهد أن القرآن فيه آيات كثيرة سلك فيها هذا المسلك: تذكير الناس بأسماء الرب الحسنی وصفاته العظيمة، ودعوتهم من خلال معرفة الله إلى القيام بعبادته - سبحانه وتعالى - .

بل أيضا ثمة جانب آخر، تجد أن ما يُذكر في القرآن من الأوامر والنواهي يذكر من الأسماء والصفات ما يناسب المقام، إن كان أمرا أو نهيا، ولهذا في باب الدعوة إلى التوبة والإنابة إلى الله تُذكر في تمام الآيات: المغفرة ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٠].

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ ﴿[الزمر: ٥٣]﴾، دعاهم إلى التوبة والإنابة وذكر لهم في تمام أنه غفور رحيم.

فإذن ذكر المغفرة والرحمة هنا لتحريك القلوب إلى الإقبال على الله - سبحانه وتعالى - طلباً لمغفرته ورحمته - سبحانه وتعالى - .

أيضاً لما تأتي النواهي، غالباً ما تختتم الآيات التي فيها أوامر أو فيها نواهي أو تحذير من بعض الأعمال تختتم بـ ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٨]، ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ []، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠]، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٤] هذا في القرآن الكثير.

ولهذا قال بعض العلماء: أكبر زاجر وأكبر واعظ على الإطلاق أن تعلم أن الله يراك، وهذا الزاجر إذا وُجد في قلبك أينما كنت تصلح بإذن الله، متى ما كنت دائماً تتذكر أن رب العالمين يراك ويطلع عليك في كل مكان تصلح، لكن إذا غفلت عند استحضار رؤية الله لك وإطلاعه عليك - سبحانه وتعالى - يبدأ الفساد ويبدأ الخلل.

إذا خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن علي رقيب

تذكر أن الله - سبحانه وتعالى - يراك ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤]، فهذا أكبر زاجر، ولهذا ذكر الأسماء والصفات وذكر اطلاع الله ورؤيته وعلمه بالعباد وأنه يعلم - سبحانه وتعالى - كل شيء، لا تخفى عليه في الأرض ولا في السماء، هذا الذكر لأسمائه - سبحانه وتعالى - وصفاته وعظمته وجلاله هو الذي يهيج في القلوب ويحرك فيها الإقبال على الله فعلاً لأوامره وتركاً لنواهيه.

(وتارة يدعوهم إلى ذلك، لأجل أن يتخذوه وحده ولياً وملجأ، وملاذا ومَعَاذاً، ومفزعاً إليه في الأمور كلها، وينبوا إليه في كل حال، ويخبرهم أن هذا هو أصل سعادة العبد وصلاحه وفلاحه، وأنه إن لم يدخل في ولاية الله وتوليه الخاص تولاه عدوه الذي يريد له الشر والشقاء، ويمنيه ويغره، حتى يفوته المنافع والمصالح ويوقعه في المهالك. وهذا كله مبسوط في القرآن بعبارات متنوعة).

وهذه أيضا طريقة من طرق القرآن في الدعوة إلى فعل الأوامر وترك النواهي، من خلال هذا الطريق يدعواهم إلى ذلك لأجل أن يتخذوه وحده وليا وملجأ وملاذا ومعازا ومفرعا إليه في الأمور كلها، وإنابة إليه في كل حال، فهذا مسلك يأتيك في القرآن ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ [الحج: ٧٨]

وقال: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]،

قال: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ۖ﴾ [الذاريات: ٥٠]،

في السنة يقول صل الله عليه وسلم: (لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك).

فهذه طريقة يُدعى العباد فيها إلى الله وإلى عبادة الله وإلى فعل أوامره وترك نواهيهِ ليكون هو الملجأ، وهو إليه المفر وإليه الرجعى وإليه المنتهى وإليه المصير وإليه المئاب، فيتذكر هذه المعاني فتحثه حثا على فعل الأوامر وترك النواهي، لا مفر لك إلا إلى الله، ولا ملجأ إلا إلى الله، ولا مفرع إلا إلى الله، ولا عصمة إلا بالاعتصام بالله، ولا ملاذ إلا إلى الله، ولا عودة إلا من الله، فأين يذهب الإنسان؟

فهذه معاني يذكر بها العبد في القرآن كثيرا حتى يجتهد في القرب من الله - سبحانه وتعالى - وحسن التقرب إليه - جلّ وعلا - بفعل الأوامر وترك النواهي.

أما إذا شرد الإنسان وأبا وترك طاعة سيده ومولاه، إلى أين يفر؟ إلى أين المفر والله الطالب؟ وأنت في قبضة الله - سبحانه وتعالى - ومصيرك إلى الله ومرجعك إلى الله، فإلى أين المفر؟

ولهذا يدعواهم الله - سبحانه وتعالى - في القرآن إلى فعل الأوامر بالتنبيه على هذا الباب العظيم: أن الملاذ هو الله، والملجأ هو الله، والمفر إلى الله - سبحانه وتعالى -، فيتخذوه وليا وملاذا وملجأ ومفرعا، ينبئون إليه ويلجؤون إليه ويعتصمون به ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، ﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ

وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠].

ومن هذا الباب قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ومن هذا الباب قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، بماذا كانوا أولياء الله - سبحانه وتعالى - ؟ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣] بالإيمان والتقوى، من كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً،

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ ۚ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]،

فولاية الله تنال بالتقوى والإيمان، ولهذا دعاهم إلى الإيمان والأعمال الصالحة حتى يكونوا أولياء الله فيتولاهم الله بحفظه وتوفيقه وتسديده ودفاعه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ﴾ [الحج: ٣٨].

فهذه طريقة من طرق القرآن في الدعوة إلى الله وإلى الأعمال الصالحة.

على أن باب الولاية أخذه أقوام - نسأل الله الكريم العافية والسلامة - أخذه أقوام باباً لتضليل الناس، وباباً للصّد عن سبيل الله، وتجد أناساً يمارسون أموراً من المعاصي ومن الآثام ويتركون طاعات الله - سبحانه وتعالى - ويدّعون أنهم أولياء الله - سبحانه وتعالى - ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

فالولاية لا تنال بالعبث، ولا تنال بأكل أموال الناس بالباطل، ولا تنال بالادعاءات، وإنما تنال بالجد والاجتهاد بحسن التقرب إلى الله - سبحانه وتعالى - ، أما شخص يجلس وتقام الصلاة وهو في المسجد جالس لا يصلي، والناس يصلون، ثم يقولون: هذا ولي سقطت عنه التكليف، هذا من أولياء الشيطان؛ لأن أولياء الله هم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون ويخشعون ويخضعون ويذلون، ويقبلون على الله - سبحانه وتعالى - بفعل الأوامر وترك النواهي، هؤلاء أولياء الله.

وجاء هؤلاء في هذا الباب بهرطقة وكلام من أبطل ما يكون يدعون به الولاية، حتى من هذه الأمور كتبوها في كتب، كتب ضلال والعياذ بالله، بعضها لا تزال موجودة بأيدي الناس، يعني من السفاهات والضلالات التي توجد في كتب هؤلاء المضلين في باب الولاية يقولون: أن الولي لا يصلح أن يطوف بالبيت، مقامه أرفع من أن

يطوف بالبيت، يقولون: الولي الكعبة هي التي تطوف به، وهذا موجود في كتب تروج بين الناس يضلون بها الناس عن.

وإن تعجب فغاية العجب أن كتابا من كتب الكبار المؤلفة في الفقه عُقد فيها مسألة في كتاب الصلاة وهي: إذا ذهبت الكعبة تطوف بالأولياء إلا أين يصلي الناس؟ وهذه مسألة فقهية عقدوها بناء على هذا الضلال والباطل، قال: في المسألة قولان، ذهب بعض أهل العلم إلى كذا والبعض إلى كذا، جهل وضلال إلى أسفه درجة وإلى أخط منزلة، خرفات ما أنزل الله - سبحانه وتعالى - بها من سلطان، باطل من أقبح الباطل وأشنعه، ويجعل على أنه جزء من دين الله - تبارك وتعالى - -وتعالى الله عما يقول هؤلاء علوا كبيرا-.

هذا عبث، الولي، سيد الأولياء محمد صلى الله عليه وسلم مرات وكرات يطوف بالبيت، ويلبس إحرامه متذلا متواضعا منكسرا لله - سبحانه وتعالى - ، ويطوف بالبيت، وأحد هؤلاء يقولون جاء إلى مكة وما طاف، قال: لأن الكعبة هي التي تطوف بي، ليس أنا الذي أطوف بها، هذا ضلال، ويروج على جهال الناس، والنتيجة من وراء ذلك أكل أموال الناس بالباطل، يضحكون على الجهال والعوام وعلى السفهاء، ويأكلون أموالهم بالباطل، بل ويتتهكون أعراضا بالباطل بإسم الولاية، نسأل الله العافية والسلامة.

في بعض المناطق وحُذثنا ببعض ذلك، يقولون المريد الذي هو تحت الولي وتابع للولي يقولون ليلة زواجه يأتي بزوجه ويسلمها للولي بزعمه، ويطلب منه أن يفتض بكارتها من أجل البركة، وتخرج وقد افتض الشيخ بكارتها - بزعمه من أجل البركة-، ثم يهبط المريد وقل المريد يهبط عند قدم الولي ويقبلها شكرا له على هذا الجميل، هذا ظلم وضلال وجناية على الدين، وعبث بالجهال واستغلال لضياع الناس.

والله يا إخوان هذه أمور مؤلمة، أحد هؤلاء لما علمناه معاني التوحيد ومعاني الإيمان ومعاني الصدق ماذا قال؟ قال أنا من بلد كذا وكذا ما أحد علمنا هذا الكلام، عندهم ناس يشتغلون فقط إضلال وأكل لأموال الناس بالباطل وزعامات بالباطل.

فالشاهد أن الولاية باب، وما يفعله هؤلاء المجرمون أمر آخر، وواد سحيق يفضي بكل من سلكة إلى الهاوية نسأل الله عز وجل العافية والسلامة.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

اللهم اجعلنا أجمعين من أولياءك المتقين ومن حزبك المقربين، وأعاذنا جميعا من الشيطان الرجيم وأوليائه وحزبه.

(وتارة يحثهم على ذلك ويحذرهم من التشبه بأهل الغفلة والإعراض، والأديان المُبدَّلة، لئلا يلحقهم من اللوم ما

لحق أولئك الأقوام. كقوله: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ﴿فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]،

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]،

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ

عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]، إلى غير ذلك من الآيات).

وهذه أيضا طريقة عظيمة ولها تأثيرها العجيب وأثرها القوي على القلوب التي كتب الله لها الخير والهداية، أنك

تجد في القرآن آيات كثيرة يحذر الله - سبحانه وتعالى - فيها عبادة من سبيل الخاسرين وسبيل الظالمين، وسبيل

الغافلين وسبيل الفاسقين ولهذا يقول: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ﴿فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]،

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، فهذه طريقة موجودة في القرآن، يذكر حال الظالمين، ثم يحذر المؤمن

من أن يكون سبيله سبيلهم، تذكر مآلات الظالمين وعواقب الظالمين الوخيمة في الدنيا والآخرة، ويحذر المؤمن

أن يكون سبيله سبيلهم، وينهى عن ذلك، فهذه طريقة نافعة جدا ومؤثرة على القلب الذي كتب الله - سبحانه

وتعالى - هدايته.

والشيخ ذكر آيات ختمها بالآية التي في سورة الحديد، وهي قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾

معنى ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ لم يأت الوقت؟ أما أن؟ أما جاء الوقت؟ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا

نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾

[الحديد: ١٦]،

قال: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ﴾ حذر من أن يكون سبيل المؤمن سبيل أولئك، ومن أن يكون طريقه طريق أولئك، فهذا من مسلك القرآن، وهذه الآيات لها تأثيرها العجيب على من كتب الله - سبحانه وتعالى - هدايته.

وهذه الآية التي ختم بها المصنف جعل الله - سبحانه وتعالى - فيها سببا لتحول رجل كان من كبار المجرمين ومن كبار قطاع الطريق ومن كبار المفسدين في الأرض، وتحول بسماعه لهذه الآية إلى رجل من كبار علماء المسلمين.

ومن يقرأ كتب الحديث وشروحات الحديث ويقرأ كتب التفسير وكتب أهل العلم وكتب المواعظ دائما تجد اسمه موجود، هذا الرجل، دائما اسمه موجود في هذه الكتب، وكان إلى أن جاوز الأربعين سنة من حياته مجرما من كبار المجرمين، وكان قاطع طريق، وكانت القوافل تخاف منه وتهابه، والقافلة بأكملها لا تستطيع أن تمر بالمنطقة التي هو فيها ليلا من خوفهم من ذلك الرجل، ذلكم هو "الفضيل بن عياض" رحمة الله وتعالى، واقرأوا قصته في سير أعلام النبلاء، وفي كتب التاريخ قصة عجيبة.

كان إلى أن جاوز الأربعين من عمره قاطع طريق، ومجرم معروف بالإجرام، وقطع الطريق والإعتداء على القوافل، وكان قوي، القافلة بأكملها تهابه، ويجلسون في أماكن ينزوون طول الليل خائفين يرتعدون يقولون: الفضيل في الطريق، يخافون منه، كان بهذا المستوى.

ولما كتب الله هدايته أتى إلى بيت يتسور، قيل: ليسرق من البيت، وقيل: يريد جارية في البيت، في البيت جارية وكان يريد تلك الجارية، وكان يتسور البيت على عادته في ممارساته وطريقته التي هو عليها، وإذا داخل البيت رجل يقرأ في سورة الحديد، وقد بلغ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ

الْحَقُّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ [الحديد:

١٦]، والآية دخلت في قلبه، قال: **بلى**، يعني جاء الوقت، ونزل - رحمه الله تعالى -، وجلس في مكان خرب ينتظر الصباح ماذا يفعل، ولما أوى إلى البيت الخرب شاء الله أن يكون في طرف البيت قافلة، ويتشاورون، قالوا: نمضي؟ قالوا: لا، طريقنا الفضيل، وهو يسمعهم، وأيضا زاد الأمر، قال: الناس كلها في رعب وفي ذعر مني، وأنا ماضي في هذا الطريق؟ وعقد النية من الصباح أن يذهب إلى مكة، وأن يبقى فيها عابدا لله - سبحانه وتعالى - إلى أن يموت، وجلس في مكة، وفعلا ذهب إلى مكة وجلس يعبد الله ويتفقه في الدين، ويتعلم ويأخذ من علماء مكة، ومن العلماء الذين هم حجاج ومعتمرين، يحفظ الحديث ويحفظ السنن، والآن لا تقرأ كتابا في التفسير ولا تقرأ كتابا في الحديث إلا يقال: قال الإمام الفضيل بن عياض - رحمه الله تعالى -، والله جعل هدايته على هذه الآية الكريمة: **﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾** [الحديد: ١٦].

اللهم اهد قلوبنا، ويسر أمورنا، واشرح صدورنا، ويسر لنا الخير يا ذا الجلال والإكرام، اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا ديانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، والموت راحة لنا من كل شر، اللهم اغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، إنك غفور رحيم.

والله أعلم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .